

التفسير المطول - سورة الأحزاب 33 - الدرس 11-18: تفسير الآية: 36-38،
السيدة زينب بنت جحش - حكم التبني في الإسلام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-6

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين،
اللهم لا علم لنا إلا ما علمنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا،
وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من
يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صيغة (وما كان لمؤمنٍ) ليست لنفي الحديث بل لنفي الشأن وهو أبلغ من نفي الحديث:

أيها الأخوة الأكارم؛ مع الدرس الحادي عشر من سورة الأحزاب.
وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَغْصِبِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (36)
هذه الآية فيها الأخوة لها أسباب نزول، وإذا كان للأية أسباب نزول فلا يمنع أن نفهمها
فهماً من عموم لفظها، علماء التفسير يفرقون بين خصوص السبب وعموم اللفظ، إذا كان لهذه
الأية أسباب نزلت من أجلها فهذا لا يمنع أن نفهمها فهماً متعلقاً بعموم اللفظ، فهذه الآية ماذا
تعني؟ يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ (36) صيغة (وما كان لمؤمنٍ) هذه ليست لنفي
الحديث؛ بل لنفي الشأن، ونفي الشأن كما تعلمون أبلغ بكثير من نفي الحديث، أوضح لكم ذلك.
إذا قلنا: فلان لم يسرق هذه الليمة، نفيينا عنه السرقة، ليس معنى هذا أنه ليس من
عادته أن يسرق، هذه لم يسرقها، قد يكون أكبر سارق، أما هذه الليمة فلان لم يسرقها، نفيت عنه
سرقة هذه الليمة فقط، أما إذا قلت: ما كان لفلان أن يسرق، أي هذا مستحيل في حقه، هذا بعيد
عن مقامه، هذا ليس من شأنه، لا يفكر في هذا، ولا يرضي هذا، ولا يريد هذا، ولا يُعقل أن يفعل
هذا، أي أشد أنواع النفي نفي الحديث، ونفي الرغبة، ونفي الإرادة، ونفي القبول، ونفي الشأن، كل
هذه منفيّة بهذه الصيغة.

قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ (36) هذه صيغة نفي الشأن لا نفي الحدث، أي ما دام المؤمن مؤمناً، ما دام قد عرف الله عزّ وجل ما كان له أن يفعل هذا، لأن معرفة الله تتناقض مع هذا الفعل، كيف أن الضوء والظلم لا يجتمعان، ما كان للظلم أن يكون مع الضوء، وما كان للضوء أن يكون مع الظلم، لأنهما متناقضان، أحدهما ينقض الآخر، فحيثما وجدتم في القرآن الكريم صيغة (ما كان)، هذه ليست لنفي الحدث؛ إنها لنفي الشأن، وأبلغ أنواع النفي هو نفي الشأن، أي المؤمن لا يعقل أن يفعل هذا، ولا يريد أن يفعل هذا، وليس من شأنه أن يفعل هذا، ولا يتمتّ أن يفعل هذا، ولا يتصرّف أن يفعل هذا، ولا يُعقل منه أن يفعل هذا، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ (36).

المرأة متساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف:

ما هذا الشيء الذي نفاه الله عن المؤمنين أصلاً، قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ (36) (ولَا مؤمنة) وهذا تابع للدرس الماضي، لو أن الله عزّ وجل قال: وما كان لمؤمنٍ أي ولا مؤمنة، لكنه ذكر مؤمنة ليؤكد لنا أن المرأة متساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف.

قضاء الله في القرآن وقضاء النبي في السنة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ (36) الله كيف يقضي؟ في القرآن، والنبي كيف يقضي؟ في السنة، إذا قال الله عزّ وجل: **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَضْنَعُونَ** (30)

سورة النور

هذا أمر الله عزّ وجل، قضى الله من خلال منهجه أن تعوض بصرك، فإذا أنت لم تعبأ بهذا الأمر فلست مؤمناً، ما دمت مؤمناً هذا أمر الله، وينبغي أن تتقي به. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (36) أنت تختر بين هذا البيت أو هذا البيت، بين هذه المهمة أو هذه المهمة، وبين هذا

البلد في سفرك أو هذا البلد، بين هذه الزوجة أو تلك، أما أن تختار بين أن تطبق أو ألا تطبق أمر الله عز وجل فهذا مستحيل بحق المؤمن.

أن تختار أن تنفذ أمر الله أو ألا تنفذ هذا ليس من صفات المؤمن:

أنت قبل الإيمان مخير؟ تؤمن أو لا تؤمن، أما إذا آمنت فلست مخيراً في أن تنفذ أو ألا تنفذ، إنسان مخير إما أن يقبل التطوع في الجيش أو ألا يقبل، فإذا قيل الطاعة ملزمة للجيش، فلا يستطيع أن يقول: هذه لم تعجبني، لا يوجد لم تعجبني بالجيش، ما دمت اخترت هذا السلك، ما دمت اخترت أن تكون في سلك الجيش فالطاعة فيه لابد منها.

مثل للتقرير: أنت ما دمت اخترت أن تكون مؤمناً فلابد من أن تطيع الله عز وجل، لو أن طالباً اختار أن يدخل مدرسة، اختار أن يكون متفقاً فهناك دوام، وهناك وظائف، وهناك تدقيق، وهناك متابعة، وهناك مراقبة، فكلمة بذئبة يعقوب عليها، تأخر يعقوب عليه، فلو أن طفلاً آخر، أو لو أن شاباً آخر لا علاقة له بالتعليم إطلاقاً، هو حر طليق، فاختال على هذا الطالب: أنا لا يوجد من يحاسبني، أنا حر طليق، أنت خارج المدرسة كلياً، أنت كمؤمن اخترت أن تكون مؤمناً، ما دمت اخترت أن تكون مؤمناً فالإيمان له التزامات، فأنت مخير أن تكون مؤمناً أو ألا تكون، لو لم تكن مؤمناً لخاطبك الله بعموم الدين، بكليات الدين قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اغْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ (21)

سورة البقرة

أما إذا آمنت بالله عز وجل خالقاً، وآمنت به رباً، وآمنت به مسيراً، وآمنت به واحداً، وآمنت به كاملاً، وآمنت به حكيناً، وآمنت به عليماً، وآمنت به خيراً، وآمنت به قدراً، لا يمكن أن تختار أن تنفذ أو ألا تنفذ فهذا أمر الله، تختار لوناً من ألوان الطعام، تختار لوناً لملابسك ترتديه، تختار بيتك تسكنه، تختار زوجة تقترب إليها، تختار حرفه تحترفها، أما أن تختار أن تنفذ أمر الله أو ألا تنفذ فهذا ليس من صفات المؤمن أبداً.

الإنسان بعد أن عرف الله يأتيه أمره وهو الكمال المطلق والعدل المطلق:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (36)﴾ طبعاً في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أمره الذي يتلوه علينا من الوحي أمر الله، وأمره الذي يتلوه علينا من دون الوحي أمره هو، نحن مكلّفون أن نطيع الله، وأن نطيع الرسول، أما إذا انتقل النبي عليه

الصلاه والسلام فصارت هذه الآيه أمر الله هو هذا القرآن، وأمر النبي هو سنة النبي عليه الصلاه والسلام، إذا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (36) أنت تلاحظون أن الإنسان كلما ارتقى علمه تضيق عليه الممرات، بمعنى الطبيب عنده طريقة للتعقيم لابد منها، العلم كلما ارتقى لابد من أن يعقم هذه الأداة، وهذا المشرط، حتى إن العمليات الجراحية الكبيرة الآن تقريباً تجري في العالم كله بطريقة واحدة، وهذا أكمل شيء، فالإنسان بعد أن عرف الله عز وجل يأتيه أمر الله عز وجل وهو الكمال المطلق، والعدل المطلق، كما قال بعض العلماء: "الشريعة عدل كلها، الشريعة رحمة كلها، الشريعة مصالح كلها، فإذا خرج التأويل - تأويل الشريعة - من العدل إلى الجور، أو من المصلحة إلى خلافها، أو من الرحمة إلى القسوة، فهذا ليس من الشريعة، ولو أدخلت عليها ألف تأويل وتأويل".

هذا شرع الله، كماله مطلق، عدله مطلق، ليس هذا كلام البشر، بل كلام خالق البشر، كلام الصانع، كلام الخالق، كلام المدبر، كلام المربى، كلام الخبير، كلام العليم، كلام الغني، كلام القدير.

علامة معرفة الله عز وجل طاعتكم له:

إذاً حينما تتردد في تنفيذ أمر الله عز وجل فأنت لا تعرف الله قولاً واحداً، أما حينما تعرف الله معرفة بالقدر الذي يكفي لطاعته فإنك تبادر مباشرةً إلى تنفيذ أمر الله عز وجل، إذاً ضع في ذهنك أنك مخير في أن تسلك طريق الإيمان أو لا تسلك، أما إذا سلكت في طريق الإيمان فلست مخيراً أن تنفذ أو لا تنفذ، هذا من لوازم الإيمان الطاعة، بل إن علامة معرفة الله عز وجل طاعتكم له، إذا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَغْصِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (36) هناك ضلال بعيد، وهناك ضلال مبين، أي أن شيئاً واضحاً صارخاً كالشمس حدث عنه، هذا ضلال مبين، على كل فهذه الآية نزلت لأسباب، أسباب نزول هذه الآية لنا عودة ثانية لهذه الآية في درس قادم إن شاء الله ، أما الآن أسباب نزول هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل أن يزوج ابنة عمته- زينب بنت جحش- إلى متبه زيد بن حaritha، من زيد بن حaritha؟ لابد لنا من أن نفهم من هو سيدنا زيد؟ ومن هي زينب؟ ولم كان الزواج بينهما؟ ثم لماذا أمر الله عز وجل زيداً أن يطلق امراته؟ ولماذا أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب؟ هذه الآية نزلت

في هاتين القصتين، فمن أجل أن نفهمها فهماً عميقاً، وأن نقلي ضوءاً كافياً على خباياها لابد من معرفة من هو زيد؟ ومن خلال قصة زيد نتعرف الشيء الكثير عن عظمة هذا الدين.

قصة زيد بن حaritha رضي الله عنه:

زيد بن حaritha يصفه الواصفون بأنه كان قصير القامة، شديد السمرة، في أنفه فطسٌ، أما نبأه وخبره ومكانته فعظيمة جداً، هذه المفارقة بين شكله وبين مكانته عند الله، بل إنه الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن، سيدنا زيد كان غلاماً للسيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي عليه الصلاة والسلام، فلما تزوج النبي خديجة رضي الله عنها، قدمت له هذا الغلام هدية منها إليه، ماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام؟ أعتقه فوراً وضممه إليه، هذا الغلام حينما ضمه النبي إلى بيته، لم يكن النبي قد بعث بعد، ولا يزال النبي في مكة فتى من فتيانها، وكلكم يعلم أن فقد الابن شيء عظيم، لذلك فجّعت أمه وأبوه بفقدده، لأنه اختطف إثر غزوٍ وبيع في سوق العبيد، وهكذا كان العرب في الجاهلية، والحق يقال: إن تاريخ العرب يجب أن يبدأ مع ظهور الإسلام، لأنه في الجاهلية كان الغزو، وكان السلب، وكان النهب، وكانت الحمية الجاهلية، وكانت العصبية، وكان وأد البنات، وكانت الحروب التي تقوم لأنفه الأسباب، يقتل فيها عشرات بل مئات الآلاف لأسباب طفيفةٍ وسخيفةٍ وحقيقةٍ، لذلك سمّاها الله الجاهلية قال: ﴿وَلَا تَبْرُجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾⁽³³⁾ والجاهلية في أدق معناها جهل في حقيقة التوحيد، وجهل في تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ في الاعتقاد، وجهل في السلوك.

في موسم الحج قصد البيت الحرام نفر من قوم زيد، من أهله، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق إذا هم بزيده وجهاً لوجه، فعرفوه وعرفهم، وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا أباهم بما رأوا، وحدّثوه بما سمعوا، ماذا قال زيد لأقربائه حينما لقيهم وجهاً لوجه؟ قال: أخبروا أبي أنني مع أكرم والد.

عظمة الإسلام تجعل المسلمين لا فرق بين إنسانٍ وإنسانٍ

سوف ترون بعد قليل كيف أن عظمة الإسلام أنه في عالم المسلمين لا فرق بين إنسانٍ وإنسانٍ:

(التفسير المطول - سورة الأحزاب 33 - الدرس 11-18: تفسير الآية: 36-38، السيدة زينب بنت جحش - حكم التبني في الإسلام)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا حَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّقَاصُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيهِ حِبْرٌ (13)

سورة الحجرات

هذا الغلام العبد الأسير الذي أشتري من سوق العبيد، وقدم لخديجة بنت خويلد، وقدمته للنبي عليه الصلاة والسلام، عامله النبي عليه الصلاة والسلام كأحد أولاده تماماً، بل إنه عامله معاملة تفوق معاملة الأم والأب لابنها، قال: أخبروا أبي أنني مع أكرم والد.

ما أسرع أن عاد حارثة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، أعد راحلته، وحمل من المال ما يغطي به فلذة كبده، وقرة عينه، وصاحب معه أخيه كعباً، وانطلقا معاً يغزان الطريق نحو مكة، فلما بلغاها دخلا على محمد عليه الصلاة والسلام، وقال له: يا بن عبد المطلب أنتم جيران الله تكونون العاني، تطعمون الجائع، تغيثون الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك، وحملنا إليك من المال ما يفي به - اطلب ما شئت - فامتن علينا وفاده لنا بما تشاء، فقال عليه الصلاة والسلام: ((من ابنكم الذي تعنيان؟)) قالا: غلامك زيد بن حارثة، فقال عليه الصلاة والسلام: ((وهل لكم فيما هو خير من الفداء أي أفضل؟)) قالا: وما هو؟ قال: ((أدعوه لكم فخيروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال - هو ابنكم - وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عندي حتى وإن دفعوا، ما هي المعاملة التي تلقاها سيدنا زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه حينما جاء أبوه وعمه ليأخذاه ويفكوا أسره آثر أن يبقى مع النبي؟ هذا الشيء الذي أتمنى أن نعرفه؛ أن عند المؤمن من الرحمة، والعدل، والعطف، واللطف، والحرص، والثقة، ما يغطي عن الأب، فقال: والله لقد أنت أنصفت، وبالغت في الإنفاق، فدعا محمد زيداً وقال: من هذان؟ وقد ورد: "المؤمن كيس فطن حذر وقف لا يعدل"، سأله محمد زيداً وقال: من هذان؟ قال: هذا أبي حارثة، وهذا عمي كعب، إذاً هذا التحقق، فقال: قد حيرتكم إن شئت مضيت معهما وإن شئت أقمت معهما، فقال سيدنا زيد من غير إبطاء ولا تردد: بل أقيم معك، وما أنا بالذي اختار عليك أحداً، أنت الأب والمع، فقال أبوه: ويحك يا زيد أختار العبودية على أبيك وأمك؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي يفارقه أبداً، هذه النبوة.

إكرام زيد الذي فقد نسبه إلى النبي كان بذكر اسمه في القرآن:

النبوة كمال مطلق، الحقيقة النبوة شيء يصعب تصوره، إنسان جاء أبوه وعمه ليفاكاه من الأسر، ويؤثر على أمه وأبيه وعمه النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكننبياً بعد، لو أن هذه

القصة وقعت بعد الرسالة يقول: هذانبي عظيم، وسوف يكون له شأن كبير، وسوف أنتفع منه نفعاً كبيراً، لا، هذا كان قبل الرسالة، قبلبعثة، كان النبي أحد فتيان قريش.

فما رأى النبي عليه الصلاة والسلام من زيد ما رأى، أخذه بيده وأخرجه إلى البيت الحرام، ووقف به بالحجر على ملأ من قريش، وقال: ((يا معاشر قريش اشهدوا أن هذا ابني يرثي وأرثه)) ابني بكل معنى هذه الكلمة؛ بل إن من لوازم الابن أن يرث أباه وأن يرثه أبوه، فقال: ((اشهدوا أن هذا ابني يرثي وأرثه)) فطابت نفس أبيه وعمه وارتاحوا وخلفاه عند محمد بن عبد الله، وعادا إلى قومهما مطمئنِّي النفس، مرتاحي البال، ومنذ ذلك اليوم أصبح زيد بن حارثة يدعى في قريش زيد بن محمد، بقي اسمه هكذا أمداً طويلاً، وظل يدعى كذلك حتى بُعثَ النبي صلوات الله عليه، وأبطل الإسلام التبني حيث قال تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ فلما جاء الأمر أن يُدعى المتبنى إلى أبيه النبي عليه الصلاة والسلام أصبح يناديه زيد بن حارثة، وقال بعض المفسرين: إكراماً لزيد الذي فقد نسبة إلى النبي بهذه الآية ذكره الله في القرآن، عوّضه عن ذلك بأن ذكر اسمه في القرآن، وهو الوحيد من أصحاب النبي الذي ذُكر اسمه في كتاب الله، والذي نقرؤه إلى يوم القيمة.

قصة زواج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة:

الآن زينب هذه من شريفات قريش، بنت عم النبي عليه الصلاة والسلام، بينما بلغَ زيد سن الزواج - دققاً - أية اعتبارات طبقية في هذه القصة؟ زيد عبد تبنَّاه النبي، نسبة إليه، قال: يرثي وأرثه، فلما شبَّ عن الطوق، وصار في سن الرجال، زوجه النبي عليه الصلاة والسلام من أشرف فتيات قريش، زينب بنت جحش بنت عمته صلى الله عليه وسلم، لكن زينب - هذا الشيء واقع - زينب التي كانت تعزّ بنسها، وتعزّ بجمالها، وتعزّ بعقلها، وتعزّ بمكانتها، آلمها أن تكون زوجاً لزيد، فكرهت وكره أخوها أن تُرَفَّ هذه الشريفة - وهذه بالطبع من مخلفات الجاهلية - إلى مولى من المولى، وفرغا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يلحق بهما العار، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وإن اعتقو، وقالت زينب فيما قالت: لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس، النبي عليه الصلاة والسلام حدثها عن زيد، وعن إسلامه، وعن مكانته، وعن علوِّ مقامه عند الله عزّ وجل، عندئذٍ بقيت متربدةً إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ عندئذٍ قبلت زينب الزواج من هذا المولى، من زيد بن حارثة.

الحكمة من زواج النبي من زينب إلغاء عادة التبني:

لكن كما تروي السيرة الحية لم تكن لتسقر بينهما، يبدو أنها ترى نفسها أكبر، وأشرف، وأعرق، وتوهم أن هناك شخصاً عظيماً يجب أن يكون زوجاً لها، على كل هذا شأن النساء جميعاً، قاسي زيد من صدّها، وقاسي من ترُفُّها، وقاسي من اعتزازها بنسها، فشكراً ذلك إلى النبي، طبعاً ربنا عَزَّ وجلَّ ذكر هذا وقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (37) أصبر، وأنا أقول لكل إنسان يشكو زوجته أن يصبر، لماذا؟ لأن له منها أولاداً، لأنها أم أولاده، والإنسان حينما يتزوج يجب أن يضع حظوظ نفسه تحت قدمه مراعاةً لمصالح الأولاد، فلذلك ما كل بيتٍ يقوم على الحب كما قال سيدنا عمر، قد تقتضي المصلحة أن تبقى هذه معك ترعى أولادها، وقد تقتضي المصلحة أن تكون هذه على وفاقٍ معها، النبي عليه الصلاة والسلام قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (37) لكن ما الذي حدث؟ الذي حدث أن الله سبحانه وتعالى شاعت حكمته أن يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من زينب، والحقيقة هذا الشيء أنا لا أبالغ إذا قلت: فوق طاقة البشر، هو زوجها من زيد، وزيد متبناه، وهو في الجاهلية في أعراف العرب ابنٌ له، ومن العار الشديد أن يتزوج الإنسان زوجة ابنه، هو ابنه، لكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا الأمر العظيم أن يلغى عادة التبني، وأن يلغي ما تواضع العرب عليه من أن المتبني كالابن، لا، قال تعالى: **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَمْهَاتِهِمْ إِنْ أَمْهَاتُهُمْ إِلَّا الْلَّادِي وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكِرًا مِنَ الْقَوْلِ فَزُورُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ** (2)

سورة المجادلة

هذا الابن، هذه ليست أمه وهو ليس ابنها، لأن علاقة الدم بين الأم وابنها علاقة ثابتة في العلم، أما هذا فمتبنٌ، مثلاً قد يشتتها، قد تقع مفاسد كبيرة، قد تختلط الأنساب، إذا سمحنا أن نعامل المتبني كما يعامل الابن، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يربى المجتمع الذي عاش فيه النبي عليه الصلاة والسلام فجعل النبي عليه الصلاة والسلام كما يقال كبس الفداء، أمر زيداً أن يطلق زينب، وأمر النبي أن يتزوجها، لذلك جاءت الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (37) أي كان النبي عليه الصلاة والسلام كُبر علىه أمام الناس، أمام من يدعوه إلى الله، أمام هذا المجتمع أن يتزوج زوجة متبناه، **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ..**

قصة زواج النبي الكريم من زينب بنت جحش رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام تحمل من أجل هذه الدعوة الشيء الكثير، تحمل من أجل هذه الدعوة الغئت قال: عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

لقد أخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَتُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبَلَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِيرٍ إِلَّا شَيْءٌ يَوْارِيهِ إِبْطُ بَلَلٍ.

صحيح الترمذى

زينب هذه حينما رُفِتَ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي الكتب، حينما بشرت بهذا الزواج تركت عملها، واتجهت إلى مصلحتها وصلت ركعتين شكرًا لله عز وجل، أي قررت عينها، وارتاحت نفسها، ورأيت أنها في مقام عظيم شرفها الله به، ولكن هذه المرأة يجب أن تتحدث عنها ملياً لأنها في المستوى الذي تطمح إليه، قالوا: بشرتها امرأة اسمها سلمى، وقيل: بشرها زيد زوجها، أي هذا أمر الله عز وجل.

لكن من هي زينب؟ النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بشرها بأمر الله عز وجل أولئك، وكانت وليمة العرس كما تروي كتب السير حافلةً، ذبح النبي الشياه، وأمر صلى الله عليه وسلم خادمه أنس بن مالك أن يدعو الناس إلى الوليمة، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوق إثر فوق، إلى أن قال النبي عليه الصلاة والسلام: يا أنس هل دعوت الناس جميعاً؟ فقال أنس: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، أي كانت وليمة حافلةً وهذه من السنة النبوية المطهرة، أن تؤلم عند الزواج.

وأقام المدعون عند النبي، وأطالوا في مقامهم، حتى نزلت آيات سوف نأخذها بعد أسبوعين، توَدَّبَ أصحاب رسول الله في لا يبقوا عند النبي وقتاً يزيد عن الوقت المألف، فهو يستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق.

مكانة السيدة زينت عند رسول الله وحديث عائشة عنها:

على كل كانت تقول زينب: أنا أكرمنك وليناً، وأكرمنك سفيراً، من ولديها الذي زوجها؟ هو الله عز وجل، كل زوجات النبي تزوجن عن طريق أهلهن، إلا زينب فقد أمر الله بتزويجها من النبي عليه الصلاة والسلام.

السيدة عائشة أدركتها الغيرة، فكانت تقول: "كانت زينب أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدي"، وهذا من شأن النساء، وكانت تقول: لم تكن واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب، أي زينب كانت أغار منها، وكانت ترتفع إلى درجة أتمنى أن أكون في هذه الدرجة. وحينما يسمع النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة بعض التعليقات الناتجة عن غيرتها، كان يقول متلطفاً إنها بنت أبي بكر، أي إن أباها أحب الناس إليه، أحياناً الإنسان يراعي زوجته بقدر أبيها، إنها بنت أبي بكر، فكان يقول كلما سمع منها قولًا فيه تعبير عن غيرتها يقول: إنها بنت أبي بكر، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان إذا عرف مقامه عند الله، وعرف شأنه فلا ينبغي له أن يعتدي على الآخرين، وقت زينب موقفاً شجاعاً وشريفاً من السيدة عائشة في حديث الإفك، فرفضت أن تتهم السيدة عائشة بشيء مع أنها ضررتها، بل إن أخت السيدة زينب كانت تروج حديث مسطح لصالح أختها زينب، وأختها وقت موقفاً مشرفاً.

قالت عائشة مرةً: "لم أر قط خيراً في الدين من زينب، إنها أتقانا الله، وأصدقنا حديثاً، وأوصل رحمةً، وأعظم صدقةً، وما سمعت منها شيئاً أكرهه". هذا موقف مشرف للإنسان، إذا وقعت فتنة، إذا كان هناك ترويج باطل، يقف الإنسان موقفاً الحازم، ويمسك لسانه عن الخوض في هذه الأكاذيب التي تروج في المدينة.

وصف بعض خصال السيدة زينب رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((إن زينب أواهه)), أي كثيرة التأوه، فلما سئل: يا رسول الله وما أواهه؟ قال: ((الأواه هو الخاشع المتضرع)), ثم تلا عليه الصلاة والسلام قول الله عزّ وجل:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

سورة هود

أي شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الزوجة بأنها منيبة أواهه. من خصالها العظيمة أنها كانت كريمة خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تصدق به على المساكين، المرأة التي تقنن حياكة القماش، أو حياكة الصوف، أو الخياطة، تعمل، تجد، تكد، ثم تنفق من هذا المال على الفقراء والمساكين، كان هذا شأن زينب.

بعد أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام قالت السيدة عائشة: كانت زينب مُعِجَّبةً للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان يستكثر منها، وكانت صالحةً قواماً، تعمل بيديها، وتنصدق على المساكين.

وقالت أيضاً: ذهبت زينب حميدةً متعددة مفزع اليتامي والأرامل، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: عن عائشة أم المؤمنين أنَّ بعض أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّنَا أَسْرَعُ بَكَ لُحُوقًا؟ قَالَ: أَطْوَلُكُنَّ يَدًا، فَأَخْدُوا قَصَبَةً يَذْرَعُونَهَا، فَكَانَتْ سُودَةً أَطْوَلُهُنَّ يَدًا، فَعَلِمْنَا بَعْدَ أَنَّمَا كَانَتْ طُولَ يَدِهَا الصَّدَقَةُ، وَكَانَتْ أَسْرَعَنَا لُحُوقًا بِهِ وَكَانَتْ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ.

صحيف البخاري

قالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام نمدُّ أيدينا على الجدار، نتطاول، نرى من التي تموت أول واحدة، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: ((أطولكن يداً)) أي أكثركن صدقةً على الفقراء والمساكين، فلان يده طويلة في الخير.

سيدينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عطاءها عشرة آلاف فقالت: اللهم لا يدركتني هذا المال في قابل فإنه فتنة، أنفقته كله على الفقراء والمساكين، ووقف عمر ببابها مرةً وقال: بلغني ما فرقت، فأرسل إليها ألفاً آخر، والألف الآخر وزعته أيضاً على الفقراء والمساكين، هذه زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، كانت كريمةً، شريفةً، حَيْرَةً، عابدةً، أواهةً، وهذه العادة عادة التبني التي كانت سائدةً في الحياة الجاهلية أبطلها الله عز وجل عن طريق هذه الحادثة، حيث تزوج زيد بن حارثة زينب وهي ابنة عممة النبي، وبعد حين أمر الله عز وجل النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من زينب، وهذا الزواج أبطل إلى الأبد عادة التبني التي كانت سائدةً.

جوهر الدين طاعة الله عز وجل:

الآن إلى الآيات، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ صَلَالًا مُبِينًا﴾** (36) في النهاية الدين كله في طاعة الله ورسوله، وما سوى الطاعة فشيء لا يقدّم ولا يؤخر، أي ثقافتك الإسلامية، معلوماتك الدينية، عندك عاطفة إسلامية، المظاهر الدينية في بيتك، هذه كلها لا تقدم ولا تؤخر، جوهر الدين طاعة الله عز وجل، فلذلك ليس من شأن المؤمن وهذا مستفاد من قوله

تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ ليس من شأن المؤمن إذا وجد أمر الله عز وجل، أو أمر النبي أن يقف متربداً أفعل أو لا أفعل، إذا كان هناك تردد فهناك ضعف في الإيمان، علامة الإيمان الذي يُتَحِّي صاحبه من عذاب الدنيا والآخرة أن يكون في الحجم الذي يحمله على طاعة الله، فإن لم يحملك إيمانك على طاعة الله فهذا الإيمان لا يكفي، لذلك: جدد إيمانك، أعد حساباتك، اجلس وفكّر في هذا الكون، اقرأ القرآن وتدبّره، إلى أن ينمو الإيمان إلى درجة يكفي لحملك على طاعة الله.

الآية بخصوص لفظها ولكن يجب ألا نغفل عن عموم معناها وكلماتها:

إذا كان هناك أمر بالنهي عن الربا، تقول: والله يا أخي توجد ضرورة، والأمر الآن غير معقول، وأين نذهب بمالنا؟ الآن الآية واسعة جداً، وإن كان نزلت في حادثة زينب رضي الله عنها، حين أمرها الله عز وجل، أو حين أمر النبي أن يتزوجها، هذه الآية بخصوص لفظها لا نغفل عن عموم معناها وكلماتها، العبارة لها عموم، من عموم العبارة أن المؤمن إذا وجد أمر الله عز وجل، أو أمر النبي عليه الصلاة والسلام فلا خيار له في التطبيق أو عدم التطبيق، وليس هذا من شأن المؤمن.

من يحيد عن طريق الحق فقد ضل ضلالاً مبيناً:

﴿وَمَنْ يَغْصِنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقْدَ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (36) الضلال مبين، الطريق واضح، مثلاً لو وجد طريق عريض جداً وعليه لوحة على عرضه تماماً، مرتفعة، فوسفوورية، كل حرف طوله ثلاثة أمتار، أن الجهة الفلاحية من اليمين، فتابع الطريق مستقيماً، هذا ضلال مبين، لوحة كبيرة متألقة، مشعة، فوسفوورية، توضح كل شيء ومع ذلك ضلل الطريق؟! هذا ضلال مبين، فاحكم على كل إنسان يعصي الله عز وجل، احكم على كل إنسان يحيد عن طريق الحق أنه ضال ضلالاً مبيناً، قال تعالى:

قال اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْيَ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىيَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)

سورة طه

لا يضل عقله، ولا تشقي نفسه.

من ادعى أن المتبني ابنه فهذا تضليل وتزوير ولعب بدين الله:

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ (37)، يا محمد، أعلى درجات النراة: ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ (37) وهو زيد: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ (37) أنعم الله عليه بالهدى، وأنعمت عليه بالعتق وبالتبني: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَثُخْنِي فِي نَفْسِكَ﴾ (37) يا محمد: ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (37) هذا الحق أحق أن يتبع، هذه العادة يجب أن تلغى، هذا السلوك المنحرف يجب أن يبطل، هذا المتبني غير الابن، هذه ليست أمه وهو ليس ابنها، هذه ليست أخته، إذا جاء الإنسان بولد صغير وتبناه في البيت، وشبّ هذا الصغير، من الجهل والخطأ أن تقول: هذا ابني، وهذا أخته فلانة، وأمه فلانة، هذا تضليل، وهذا تزوير، وهذا لعب بدين الله عزّ وجلّ، فالابن ابن، والمتبني متبني، ولا يمكن أن يتساوى الشيئان.

تطبيق الشرع تماماً وإن كان مخالفًا للأعراف والتقاليد:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَثُخْنِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (37) أي الأعراف والتقاليد لها تأثير، هو يدعو إلى الله، هو مثل أعلى في الكمال، ماذا يقول الناس عن النبي حينما يتزوج زينب زوجة متباها؟ ماذا يقول؟ خشي على سلام الدعوة، وخشي على لغط الناس، وأن يتكلموا في حقه ما ليس بواقع، فقال الله عزّ وجلّ مسلياً النبي عليه والسلام: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَأَ زَوْجَنَاكَهَا﴾ (37) لماذا؟ لماذا كل هذه القصة؟ ولماذا كل هذه الأزمة؟ ولماذا الطلاق؟ ولماذا الزواج؟ قال: ﴿لَكَيْنَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَذْعِيَّا لَهُمْ إِذَا قَصَّوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ﴾ (37) أي يجب أن يطبق الشرع تماماً، المتبني شيء والابن شيء آخر.

﴿لَكَيْنَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَذْعِيَّا لَهُمْ إِذَا قَصَّوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مُفْعُولًا﴾ (37) هذا الذي يجب أن يتم.

ربنا عزّ وجل جعل النبي يدفع الثمن ليبطل عادة التبني:

الآن استبطاطاً من هذه القصة، ليس للإنسان الحق في أن يقول: فلانة مثل أختي، وهذه مثل أمي، أم رفيقه مثل أمه، وهذه مثل أختي، وهذه تخاوينا بالله، وهذه مثل ابنتي، وهذه مثل أختي، وهذه مثل أمي، هذا كله كلام فيه ضلال، ربنا عز وجل جعل النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعزُّ الخلق عليه، جعله يدفع الثمن، ويقف هذا الموقف الحرج، ليبيط هذه العادة المتغشية في المجتمع الجاهلي، فنحن إذا عدنا إلى مثل هذه العادات فقد عدنا إلى جاهلية أخرى، فالمحارم محارم، الأجنبيةيات، الأجنبيةيات تشتته، لو كان هناك صداقة، لو كان هناك جوار، لو كان هناك قرابة بعيدة، لو كان هناك علاقات حميمة، الأجنبيةيات تشتته، لو أن بنتاً صغيرةً تبنيتها ونشأت في حركك، وأنت أبوها بالتبني، وهذا أخوها بالتبني، هذا ليس أباً، وهذا ليس أخيًّا، ربما وقعت الفواحش في البيت الواحد من عادة التبني فلذلك سيدنا عمر كما يقال: كان وقاً عند حدود الله.

إذاً ربنا عز وجل لحكمة أرادها علل السبب، لماذا كانت هذه القصة؟ **﴿كَيْنَىٰ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْواجٍ أَذْعَيْأَتْهُمْ (37)﴾** زينب زوجة متبنى النبي، جاء الأمر أن تطلق، وجاء الأمر أن يتزوجها النبي، وهو في حكم ابنه في العادات والتقاليد، لكن الشرع شيء العادات والتقاليد شيء آخر.

المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد التي تعارف الناس عليها وليس في الشرع:

شيء آخر؛ قد تأتي العادات موافقةً للشرع، فمرحباً بها، لا يوجد مانع، أي من العادة أن نزور بعضنا، بعض الزيارات، بعض المساعدات، أي عادة اجتماعية يقرها الشرع أكرم بها من عادة، أما حينما تنفصل العادات عن الشرع فيجب أن نركلها بأقدامنا وأن نتبع الشرع، لذلك المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد، أي شيء تعارف الناس عليها وليس في الشرع فهذا مرفوض، أي هذا الاختلاط في الأسر، نحن بيت واحد وهكذا ربنا، وهكذا نشأننا، وهكذا أبونا علمنا، مائدة واحدة، هناك أصهار متعددون، هناك زوجات متعددات، كلهن يبدين محاسنهم أمام الأجانب بحكم العادات والتقاليد هذا كله ليس من الدين في شيء، وما هذه القصة التي جعلها الله قرآناً إلا من أجل ألا نقع في هذه المتاهمات مرةً ثانية، وقد نعود إليها بسبب ضعف الإيمان، وضعف اليقين، وضعف معرفة أمر الله عز وجل.

الحق لا يستحيا منه:

(التفسير المطول - سورة الأحزاب 33 - الدرس 11-18: تفسير الآية: 36-38، السيدة زينب بنت جحش - حكم التبني في الإسلام)

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةً اللَّهِ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ (38) أي حينما أمر الله النبي أن يتزوج من زينب ما كان عليه من حرج، لذلك فالحق لا يستحيا منه، والحلال لا يستحيا منه، والمباح لا يستحيا منه، هناك أحياناً إنسان يكون عنده زوجة لا تنجع فتجعله يختار اختياراً صعباً، إما أن يطلقها، وإما أن يصبر عليها، الله سمح له بزوجة ثانية، هذا ليس خلافاً للشرع، لتبقى عنده، وليحسن إليها، ولينجذب من ثانية أولاداً، فالحلال لا يستحيا منه، والحق لا يخاف منه، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمته الله، وحينما تختلف العادات والتقاليد مع الشرع، يجب أن نركل العادات والتقاليد بأقدامنا وأن نتبع الشرع، أما الذين يتبعون العادات والتقاليد على حساب الشرع فهوئاء ما عرفوا الله، وفي إيمانهم ضعف، وقد ضلوا ضلالاً مبيناً.

والحمد لله رب العالمين